المحاضرة 02: احياء القصيدة العربية بين المشرق والمغرب (محمود سامي البارودي–الأمير عبد القادر)

شهد الأدب العربي عبر مراحله التاريخية منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث تطورات أسهمت في ازدهاره حينا، وركوده حينا آخر، وغالبا ما كان ذلك مرتبطا بقوة دولة العرب والإسلام أو ضعفها. وفي العصر النهضوي من بين العصور التي حاول فيها رواد الشعر العربي النهوض به من خلال السعي إلى إحيائه وإعادة بعثه، فسميّ أدب هذه الفترة بأدب الإحياء القائم على أساس بعث القصيدة العربية القديمة، وبثّ روح التجديد فيها خاصة بعد الركود والضعف الذي شهده في عصر الضعف والانحطاط فحاولوا النهوض به بالعودة إلى العصور القديمة والذهبيّة للإفادة منها "فما كان الكاتب إلاّ رجلا من الناس يتأثّر بما يقرأ ويحفظ، ثمّ يستلهم بعد ذلك ما قرأ وحفظ قبل مرحلة الكتابة وأثناءها معا...وبقدر ما يكون محفوظ الكاتب أجود أصلا، يكون إنتاجه أرقى وأقوى" بفعل القراءة والحفظ لدواوين القدامى التي بعثت في المحدثين أساليبهم محاولين الابداع فيها. فما هو مفهوم الإحياء والمدرسة الإحيائية؟ ورواده؟ وأهم خصائص الشعر الإحيائي؟

مفهوم الإحياء:

الإحياء هو مصدر الفعل "أحيا" ويعني لغةً ضدّ الإماتة (إعادة الحياة أو إبقاء الحياة)، وبالتالي صبغ القديم بصبغة جديدة، فهو ابداع بعد اتّباع.

ومن عنا استمدّ الشعر خاصيته الإحيائية، حيث حاول روّاده في هذه المرحلة إعادة إحيائه وبعثه من جديد، عن طريق العودة إلى القديم.

عرف عصر النهضة مرحلتين، أوّلهما: مرحلة الإحياء وثانيهما: مرحلة التجديد. وحين نتساءل عن مراحل الأدب؟ نقول أنّه أي الأدب كان ضعيفا، ثمّ أعيد إحياءه، ثمّ تجدّد.

حركة البعث والإحياء: وتسمى أيضا الكلاسيكية أو الإتباعيّة أو التقليدية، والمحافظة لأنّ غاية الشعراء الوحيدة في هذه المرحلة هي إحياء القصيدة العربية من الضعف الفنّي الذي عرفته في عصر الانحطاط والضعف.

مرحلة الإحياء هي مرحلة زمنية أدبية، مثّلها المذهب الكلاسيكي الذي مثّلته المدرسة الإحيائيّة، ولعلّ السؤال الأساس هنا يكون حول الطريقة التي اعتمدوها في الإحياء؟ أو ما هو السبيل إلى ذلك؟ والإجابة

هي أنّ طريقتهم في ذلك أنّهم رجعوا في أساليب كتاباتهم إلى الموروث القديم، أي انّهم رجعوا يكتبون أو ينظمون كما ينظّم الشعراء القدامى.

محمود سامي البارودي رائد حركة البعث والإحياء في المشرق:

يعدّ محمود ساميي البارودي أوّل من حاول النهوض بالشعر العربي من كبوته الذي دام قرونا من الزمن، والباعث الأول لروح النهضة الأدبية الحديثة، ويرجع ذلك إلى عاملين: امتلاكه الموهبة الفطرية لقول الشعر، وتكوينه التراثي المتين. فاستطاع أن يمثّل التجربة الشعرية العربيّة القديمة، واستلهام نماذجها العالية بدءا بالعصر الجاهلي وصولا إلى العصر العباسي. وتمكّن من محاكاة أغراضهم الشعرية ولغتهم الراقية، وأساليبهم التعبيرية فمدح ورثى وتغزّل وافتخر ووصف ...كما استطاع من أن يجعل من شعره ترجمانا ومرآة عاكسة لحياته منذ طفولته، إلى مشاركته في الحروب، وتزعّمه للثورات، وأخيرا نفيه من أرض الوطن.

التجربة الشعرية عند البارودي:

سنحاول عرض أهمّ الأغراض التي نظم فيها البارودي:

المدح: الذي كان حاضرا بقوّة عند البارودي، فقد سار على شاكلة القدماء، يرجع ذلك إلى التقاليد الشعرية العربية القديمة التي تعطي اهتماما كبيرا لهذا الغرض، فقد نظم في أكثر من مناسبة، كقوله في تهنئة الخديوي (محمد توفيق باشا) جلوسه على الخديوية في مصر 1297هـ-1879م:

أَبَني الكِنانة أبشروا بمحمّد **** وثِقوا براعٍ في المكارم أوحد

فهو الزعيم لكم بكل فضيلةٍ **** تبقى مآثرُها، وعيْشٍ أرغد

الرثاء: بدوره حظي باهتمام البارودي، فكان له النصيب في النظم، ولعلّ ذلك يعود إلى معايشته للكثير من الأحداث المؤلمة، تركت أثر في نفسه، فقد نظم في وفاة صديقه أحمد فارس الشدياق، وشيخه حسين المرصفي، وتبقى أجمل قصيدة نظمها كانت في رثاء زوجته، التي توفيت وهو في سرنديب، عدد أبياتها 67 بيتا، يقول فيها:

أستنجد الزّفرات وهي لوافح **** وأسفّه العبرات وهي بوادي

لا لوعتي تدع الفؤاد، ولا يدي **** تقوى على ردّ الحبيب الغادي

يا دهر، فيم فجعتني بحليلة؟ **** كانت خلاصة عدّتي وعِتادي

إن كنت لم ترحم ضناي لبُعدها **** أفلا رحمت من الأسى أولادي

الغزل: من بين الأغراض التي لاحظنا حضورها في شعر البارودي، انتهج فيه نهج شعراء الغزل العذري، يصف فيه المحبوبة وصفا عفيفا طاهرا، يغمره الحزن والاشتياق والولع بها، وهذه أبيات من إحدى قصائده:

يا مَنْ رأى الشادن في سربه **** يتيه بالحُسْن على تِرْبِه

أرسل فرعيه لكي يعبثا **** بأُكْرَتَيْ نَهْدَيْه من عُجْبِه.

الفخر والحماسة: اتّبع نهج القدماء في هذا الغرض، ومن أمثلة ذلك ما قاله:

وبحر من الهيجاء خُضت عُبابة **** ولا عاصم إلاّ الصّفيح المُشطّب

تظل به حُمر المنايا وسُودها **** حواسِر في ألوانِها تتقلّب

توسّطْتُه والخيل بالخيل تلتقي **** وبيضُ الضُّبا في الهام تبدُو وتغرُبُ

هو مقطع يصوّر معركة عنيفة خاضها بنفسه، حيث: يشبه الحرب ببحر هائج، ويبرز شجاعته وإقدامه، مصوّرا كثرة القتل والتحام الصفوف، وكل هذا يعكس تأثّره الواضح بشعر الفروسية القديم خاصة المتنبي وأبي تمام.

وصف الطبيعة: يعدّ من الأغراض التجديدية البارزة في شعر البارودي، لرغبته في معانقة الجمال ورهافة حسّه، فنجده يصف مختلف عناصر الطبيعة من مطر وسحاب وكذا وصفه للناقة والأسد والفرس...تتخلله محاكاة للشعراء القدامى في الفخامة والقاموس الشعري، ومن أمثلة ذلك ما قاله في وصفه للفرس معارضا الدالية للنابغة الذبياني في الغرض ذاته:

ولقد هبطت الغيث يلمع نوره **** في كل وَضَّاحِ الأسرَّة أغْيَد

تجري به الآرام بين مناهل **** طابت مواردها، وظلّ أَبْرد

بمُضَمَّرٍ أرِنٍ كأنّ سُراته **** بعد الحميم من عَسْجَدِ

زجِلٌ يردّد في اللّهاة صهيله **** رَفعا كزَمزَمة الحبِيّ المرعد

الشوق والحنين: كغرض شعري جديد نتج جراء نفيه إلى سرنديب، يتسم بالشوق والحنين إلى وطنه مصر، وأشهر قصيدة نظمها في هذا الغرض بعنوان "سرنديب" يقول فيها:

لكل دمعٍ جرى من مُقْلةٍ سببُ **** وكيف يملك دمع العين مكتئب؟

لولا مكابدة الأشواق ما دمعت **** عين ولا بات قلب في الحشا يجِبُ

فيا أخا العذْلِ لا تجعل بلائمة **** عليَّ فالحُبّ سلطان له الغَلَبُ

فكيف أكتمُ أشواقي وبي كَلَفٌ **** تكاد مِنْ مسِّه الأحشاء تنشَعِبُ

خصائص القصيدة الإحيائية:

تعدّ المحاكاة السمة الأساس في الشعر الإحيائي بحيث يحاكي الشاعر الكلاسيكي القدامى في بناء القصيدة وشكلها، لكن السؤال الذي يطرح نفسه، هذه المحاكاة والمجاراة وهذا التقليد الذي كان للقدامى في بناء القصيدة فيم يتمثّل؟

- الألفاظ امتداد للمعجم العربي القديم، وهذا يعني أنّها لم تكن مجرّد استخدام للكلمات، وإنّما محاولة لاستعادة روح اللّغة العربيّة الأصليّة وأسلوبها البياني الرصين الذي كان سائد في العصور الذهبيّة، بهدف إعادة إحياء التراث اللّغوي والثقافي للشعر العربي القديم، والحفاظ على الهويّة الثقافية، وتعزيز جماليات النص الشعري.
- الابتداء بالمقدّمة الطللية والغزلية، كدليل على أنّ الشعراء محافظين ومتأثّرين بالقدماء.
- توظيف الخيال القديم، أي استخدام الصور البيانيّة القديمة لكن بإسقاطها على تجارب شعورية
- التّقيد بالبحور الخليلة المعروفة.
- وحدة البيت واستقلاليته، بحيث يمكن التقديم والتأخير أو الحذف دون أن يختلّ المعنى.
- تعدد المواضيع كما كان سائدا في القصيدة القديمة
- التقليد في الموسيقى الخارجية: يعني اعتماد القافية الموحدة والوزن الواحد والروي الواحد، وبالتالي الشكل العمودي الذي بنيت عليه القصيدة القديمة.
- استحداث بعض الأغراض الشعرية: رغم أنّهم حاكوا القدماء في أغراضهم (الغزل والمدح والرثاء والوصف والفخر والحماسة...)، إلاّ انّهم تمكّنوا من استحداث بعض الأغراض الشعريّة خاصة مع البعثات العلمية وحركة الترجمة وتأثّر الشعراء بالآداب الأجنبية كشعر المنفى، وتطوير بعضها كالشعر الاجتماعي والسياسي.
- الاقتباس من القرآن الكريم، وهو ما كان جليّا في شعر البارودي وغيره من الكلاسيكيين، "فالمعاني القرآنية قد وجدت طريقها إلى فنّ الشعراء الإحيائيين ومعانيهم، لأنّهم ثقفوا هذه المعاني في نشأتهم الأولى، ودرجوا على تأمّلها في حياتهم الفكرية والفنّية... كالدعوة إلى التأمل في

الكون، والتفكير في خلق الله، والدعوة إلى الاتحاد والقوّة ونبذ التفرق إلى غير ذلك من المعاني التي جاء ذكرها في القرآن الكريم".

- العناية بالرؤية الإصلاحية الاجتماعية، حيث كانت مضامينهم بمثابة دعوة إلى اصلاح مجتمعاتهم وأوطانهم والرغبة في هذا الإصلاح، وهذا وارد جدا عند البارودي، واحمد شوقي حين قال:

إلام الخلف بينكم إلا ما **** وهذي الضّجة الكُبرى علاما

وفيمَ يَكيد بعضكم لبعضٍ **** وتبدون العداوة والخصاما

وأين الفوز لا مصرُ استقرّت **** على حال ولا السودان داما

أعلام الإحياء الشعري في المشرق:

إضافة إلى البارودي رائد الإحياء الشعري في المشرق نجد إلى جانبه ثلّة من الشعراء الرائدين، ومن أبرزهم:

*أحمد شوقي الملقب بأمير الشعراء، وهو رائد الإحياء ما بعد البارودي

*حافظ إبراهيم شاعر النيل، وشاعر الصوت الحر ولسان الشعب.

*معروف الرّصافي الملقّب بشاعر العراق الأكبر وشاعر العرب الأكبر، يعدّ من أشهر الشعراء المحافظين المجددين.

الأمير عبد القادر رائد حركة الإحياء الشعري في المغرب:

سعى الشعراء المغاربة كغيرهم من الشعراء المشارقة في عصر النهضة إلى إعادة القصيدة العربية إلى سابق مجدها لما كان الشعر في أوجّ ازدهاره، فإذا كان البارودي رائد الإحياء الشعري في المشرق، فإنّ الأمير عبد القادر هو رائده في المغرب العربي، نظرا للسمات التي اتّسمت بها قصائده التي لم تخرج عن نظام القصيدة القديمة، على مستوى الشكل والمضمون، فكيف تجسّدت هذه السّمات في شعر الأمير عبد القادر؟ وما الذي جعل من تجربته الإبداعية متميّزة؟

التجربة الشعرية للأمير عبد القادر:

يعدّ الأمير عبد القادر رائد مدرسة الإحياء في المغرب العربي حيث "أمسك بزعامة السّيف وزعامة الشعر في وطنه"، فالمتتبع لتجربة الأمير الوجدانية والروحية من خلال ديوانه ، ومسار حياته يلاحظ "ضرورة

التفريق بين وصفه أميرا شاعرا، وبين وصفه مريدا متصوّفا"، وهذا ما سنحاول تقديمه من خلال تجربته الشعريّة التقليدية، ونزعته الصوفية.

أ- التجربة الإحيائية: كانت له اسهامات في الشعر العربي بدأ فيها مقلّدا لملامح القصيدة القديمة من ناحيتي المبنى والمضمون، والمتأمّل في شعره تبدو له حقيقة مفادها غياب الكثير من الأغراض الشعرية، مقابل أغراض أخرى برزت لعلّها ترسم لنا سمات القصيدة التي جعلته يكتسب الرّيادة، فما هي هذه الأغراض التي تعبّر عن نزعته الإحيائية؟

الغزل: كغرض عرف حضورا قوّيا عند الأمير، هو الغزل البدوي العفيف جرى فيه على شاكلة العشاق العذريين القدامى، تعكس رهافة حسّه وصدق عاطفته، وبخاصة انّ عاش تجربة عاطفية صادقة مع ابنة عمّه، نظم فيها قصيدة بنفس العنوان "بنت العمّ"، يقول فيها:

أقاسي الحب من قاسي الفؤاد *** وأرعاه ولا يرعى ودادي

أريد حياتها وتريد قتلي *** بهجرٍ أو بصدّ أو بعاد

وأبكيها فتضحك ملء فيها *** وأسهر وهي في طيب الرقاد

وتعمى مقلتي إما تناءت *** وعيناها تعمّى عن مرادي

وتهجرني بلا ذنبٍ تراه *** فظامي قد رأت دون العباد

وأشكوها البعاد وليس تصغي *** إلى الشكوى وتمكث في ازدياد

وأبذل مهجتي في لثم فيها *** فتمنعني وأرجع منه صاد

وأغتفر العظيم لها وتحصي *** علي الذنب في وقت العداد

وأخضع ذلةً فتزيد تيهاً *** وفي هجري أراها في اشتداد

فما تنفك عني ذات عزّ *** وما أنفك في ذلي أنادي

فما في الذل للمحبوب عارٌ *** سبيل الحب ذلٌّ للمراد

رضا المحبوب ليس له عديلٌ *** بغير الذل عليس بمستفاد

ألا من منصفي من ظبي قفرٍ *** لقد أضحت مراتعه فؤادي

ومن عجب تهاب الأسد بطشي *** ويمنعني غزالٌ عن مرادي

وماذا غير أن له جمالاً *** تملّك مهجتي ملك السواد

وسلطان الجمال له اعتزاز *** على ذي الخيل والرجل الجواد

وهذا الفعل مغتفر وزين *** إذا يوماً أبيت على معاد

فإن رضيت علي أرت محيا *** بشوشا بالملاحة ظلّ باد

خليلي إن أتيتَ إليّ يوما *** بشيراً بالوصال وبالوداد

فنفسي بالبشارة إن ترمها *** فخذها بالطريف وبالتلاد

إذا ما الناس ترغب في كنوزٍ *** فبنت العم مكتنزي وزادي

الفخر: نظم شعره على غرض الفخر والحماسة لكونه من الشعراء الذين يملكون ما يفخرون به حقيقة لا إدّعاء، لهذا نجد فخره مقسم إلى قسمين: الفخر الفطري الطبيعي الذي وُلد معه، ويتمثّل في نسبه الشريف الذي ينتهي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن أمثلة ذلك قوله:

أبونا رسول الله، خيرُ الورى *** فمَنْ في الورى يبْغي يُطاولنا قدْرَا

ولانا غدا دينا وفرضا مُحتَّما *** على كلِّ ذي لُبٍّ به يَأْمنُ الغَدْرَا

وحسبِي بهذا الفخرِ من كلّ منصبٍ *** وعن رتبةٍ تسمو..وبيْضاءَ أو صفرَا

بعَلْيائِنا يعلو الفَخَارُ وإنْ يكُنْ *** به قدْ سَمَا قومٌ، ونالوا به نَصْرَا

والقسم الثاني المتمثّل في الفخر المكتسب ببطولاته، ناله بالجدّ والتّعب والمثابرة، وهو أكثر حظوظا من القسم الأول،كونه مرتبط بالحماسة ووصف المعارك التي خاضها والفروسية والقتال وغير ذلك، ومن أمثلة ذلك قصيدة "بنا افتخر الزمان"، التي تحمل على معاني الفخر:

لنَا في كلِّ مَكْرَمةٍ مجالُ *** ومنْ فوْقِ السِّماكِ لَنَا رِجالُ

رَكبْنا للمكارِم كُلَّ هَوْلٍ *** وخُضْنا أبْحُرًا ولها زِجالُ

إذا عنْها تَوانى الغَيْرُ عجْزا *** فنحن الراحلون لها العِجالُ

سِوانا ليس بالمقصود لمَّا *** يُنادي المُستغيث: ألا تعالوا

التجربة الصوفية: لا يمكن الحديث عن الأمير عبد القادر دون الخوض في غما تجربته الصوفية، فقد كانت له من الأشعار ما يعبّر عن تجربته الروحية، وتكوينه الديني وتشعبه العقائدي، كيف لا ؟ وهو ترعرع في مجتمع يعنى بتلقين أبنائه الدين وحفظ القرآن الكريم، تتلمذ على يد شيخ العارفين "محي الدين

بن عربي"، وتأثّر به كثيرا حيث اقتبس ونقل عنه من خلال كابه "المواقف"، ومن الأمثلة التي تبيّن حضور المضمون الصوفي قوله:

أودّ طول الّيل إنْ خلَوْتُ بهم **** وقد أديرت أبريق وأقداح

يروعُني الصبح إنْ لاحت طلائِعه **** يا ليته لم يكن ضوء وإصباح

ليْليَ بدا مُشْرقا من حُسْن طلْعَتِهم **** وكلّ ذا الدّهر أنوار وأفراح.

إنّ سيره في طريق التّصوف يعود إلى نشأته في "أسرة دينية محافظة، غرست في نفسه حبّ العبادة والتقوى، والزهد في الدنيا، لذلك فلا عجب أن نجده ينحو منحى صوفيا خلال حياته، ويتخذ أقطاب الصوفية أساتذة ومشايخ له يمدحهم ويعظمهم محبة لهم وإرضاء لهوى في نفسه". ومن هنا يتضح أنّ الأمير عبد القادر استطاع أن يحاكي النماذج التقليدية، وتمكّن من التعبير واتّخذ من الشعر أداة للتعبير بصدق عن حياته وتناقضاتها، عن أحاسيسه والصور الماثلة في ذاته للافتخار بتفوقه، في قالب فنيّ إحيائي.

المراجع:

-محمود سامي البارودي، الديوان، دار العودة، بيروت-لبنان، 1998.

-محمد عب المنعم خفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، ج1، دار الجيل، ط1، بيروت-لبنان، 1992.

-منصور قيسومة، اتجاهات الشعر العربي الحديث من النصف الأول من القرن العشرين، الدار التونسية للكتاب، ط1، تونس، 2014.

-أحمد نعمات فؤاد، خصائص الشعر الحديث، دار الفكر العربي، بيروت-لبنان.

-محمد مصطفى هدارة، دراسات في الأدب العربي الحديث، دار العلوم العربية، ط1، بيروت-لبنان، 1990.

-الأمير عبد القادر، الديوان، تح: العربي دحو، منشورات ثالة، ط3، الجزائر، 2007.

-صالح خرفي، مدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، سلسلة في الأدب الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.